

السردُ الديستوبيُّ: المفهومُ والتاريخُ ومراحلُ التطور

Dystopian narrative: Concept, Vision, and Stages of development

أ. د. بسام موسى قطوس*

قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، جامعة اليرموك، إربد 21110، (الأردن)

Quttous@yahoo.com

تاريخ الاستلام: 2025/10/04 تاريخ القبول: 2025/10/20 تاريخ النشر: 2026/05/11

Abstract :

This study explores the concept of dystopian narrative with the aim of developing a clearer and more coherent understanding of its defining features. It situates dystopian fiction within its broader historical trajectory by examining the development of the global dystopian novel, its intellectual, social, and political underpinnings, as well as key examples from Arabic dystopian literature and the major stages of its evolution. The study argues that a set of political, social, and economic factors - such as poverty, class inequality, discrimination, the erosion of the middle class, the rise of totalitarian regimes, moral and ethical decline, and rapid technological advancement has played a crucial role in the emergence of dystopian narrative. In this sense, the dystopian novel functions not merely as a form of representation, but as a critical and provocative medium that seeks to raise awareness, challenge existing realities, and at the very least, unsettle and question dominant structures.

To clarify the distinctiveness of dystopian narrative, the study provides a brief theoretical overview of narrative as a broader concept. This allows for a comparison with earlier narrative forms, particularly those shaped by realism, to highlight the qualitative shift represented by dystopian writing as a relatively recent literary mode. The analysis therefore begins with an examination of the concept of narrative form both linguistic and theoretical perspectives, along with its key elements and components, before tracing the main stages in the development of dystopian narrative.

Keywords: Dystopian narrative, Utopia, Dystopia, Literary Evolution, Science-fiction.

ملخص البحث:

نتغياً في هذا البحث الوقوف على مفهوم السرد الديستوبيّ بُغيةً تشكيل رؤية حول مفهومه، والوقوف من ثم على الإطار التاريخي للرواية الديستوبية العالمية، وأهم خلفياتها المعرفية والاجتماعية والسياسية، وأبرز الروايات العربية الديستوبية، ومراحل تطورها. ويفترض الدارس أن مجموعة من العوامل السياسية والاجتماعية والاقتصادية؛ كالفقر، والطبقية، والتمييز، وما تبعها من ذوبان للطبقات الوسطى فضلاً عن أنظمة الحكم الشمولية، والتدهور القيمي والأخلاقي، فضلاً عن الطفرة التقنية، هي عوامل مهمة أسهمت في بروز هذا النوع من السرد الديستوبي، أو الرواية الديستوبية التي شكلت أداة تحريض وتحفيز وربما تنوير لتغيير هذا الواقع، أو السعي، على أقل تقدير، لخلخلته وتغييره.

وربما اقتضى البحث تقديم بسطة نظرية سريعة حول السرد بُغية ربط السرد الديستوبي بما سبقه من السرد الأخرى حتى يتضح الفرق النوعي بين هذا السرد الجديد نسبياً والسرد السابقة عليه، وهي سرود كانت تسيطر عليها الواقعية. وهذا يقتضي الوقوف أولاً على مفهوم السرد لغةً واصطلاحاً، والتعرف إلى عناصره ومكوناته، ومن ثم الذهاب إلى مراحل تطور هذا السرد الديستوبي.

الكلمات المفتاحية: السرد الديستوبي، يوتوبيا،

ديستوبيا، مراحل التطور، أدب الخيال العلمي.

مفهوم السرد وعناصره ومكوناته:

(1)

السرد لغةً، يعني مقدمة شيء يأتي متسقاً بعضه في إثر بعض متتابعاً. سرّد الحديث إذا تابعه، وفلان يسرّد الحديث كان جيّد السياق له".⁽¹⁾

والسرد في تاج العروس جودة سياق الحديث ونحوه، يسرّده سرداً، إن تابعه، وفلان يسرّد الحديث سرداً، أو تسرّده إذا كان جيّد السياق، وسرد القرآن أي تابع قراءته.⁽²⁾

أمّا مفهوم السرد اصطلاحاً، فقد أشارت عددٌ من معاجم المصطلحات العربيّة إليه، ووقفت عنده بوصفه مصطلحاً عامّاً يشتمل على قصّ حدثٍ أو مجموعةٍ من الأحداث، أو خبرٍ أو مجموعةٍ من الأخبار سواء أكان ذلك حقيقةً أم خيالاً.⁽³⁾

كما يعني السرد: "العملية التي يقوم بها السارد أو الراوي، وينتج عنها النص القصصي المشتمل على اللفظ، أي (الخطاب القصصي) والحكاية أي الملفوظ القصصي. كما يعتبر "المصطلح الذي يشتمل على قص حدث، أو أحداث، أو خبر، أو أخبار سواء أكان ذلك من صميم الحقيقة أم من ابتكار الخيال".⁽⁴⁾

وثمة من يذهب إلى "أن (السرد) بمفهومه العام "ليس سوى الانطلاق من بداية نحو نهاية معينة، وما بين البداية والنهاية يتم فعل القص أو الحكى من جانب الراوي، ويتضمن السرد الوقائع والأحداث في تركيبته اللغوية، وتخضع هذه الوقائع والأحداث لنظام معين".⁽⁵⁾

أمّا علّم السرد فهو علم يهتم بدراسة السرد (القصّ)، وكلّ ما له علاقة بالنظم التي تحكم إنتاجه وتلقّيه، وهو أحد علم ازدهر على يد الشكلايين الروس، وطورته البنيويّة الشكلائيّة كما تبلورت في دراسات كلود ليفي-ستراوس، وقد تنامي هذا الحقل في دراسات تزفيتان تودوروف، وألغردا جوليان غريماس، وجيرالد برنس. وبعدها تعرّض لتغيّراتٍ ناتجة عن دخول تياراتٍ فكريّة ونقديةٍ مختلفةٍ متّجهةٍ نحو ما بعد البنيويّة كما ظهر عند الناقد الفرنسي رولان بارت.^(41,6)

وبغية الوقوف على مكونات السرد ينبغي الإشارة إلى تعريف آخر يتلخص في أنّه "الحكيّ القائم على دعامتين أساسيتين هما: أن يحتوي على قصّةٍ ما تضمُّ أحداثاً بعينها، وأن يحدّد الطّريقة التي تُحكى بها تلك القصّة، ذلك أنّ القصّة الواحدة يُمكن أن تُحكى بطرقٍ مختلفةٍ، فيعتمدُ على السرد في تمييز أنماط الحكي بشكلٍ أساسيٍّ، والقصّة المحكيّة تفترض وجود شخصٍ يحكي، وآخر يُحكى له، وهو ما يعني وجود تواصلٍ بين الطّرف الأوّل الذي يُدعى راويّاً، والطّرف الثاني الذي يُدعى مروياً له".⁽⁷⁾

ويعد السرد أو القصّ فعلاً يقوم به الراوي المبدع للقصّة، قد يكون حقيقياً أو خيالياً ثمرته الخطاب، ويشمل مجمل الطّروف المكانية والزّمانية والواقعيّة والخياليّة التي تحيط به، وهو عمليةٌ إنتاج يقوم الراوي من خلالها بدور المنتج، والمروي له بدور المستهلك، ويكون الخطاب هو السلعة المنتجة، ويكون السرد تمثيلاً للحوادث؛ إذ يمثّل صيغةً من صيغ الخطاب وظيفتها وصف سير الحدث كفعلٍ في زمن.⁽⁸⁾

وخلاصة القول: إنّ السرد يقوم على عناصرٍ أساسيّة تتألف من الزاوي أو السارد، والمروي له أو المسرود له، والمسرود أو المروي الذي يكون رسالة الزاوي إلى المروي له. ولا يشترط في الراوي أو السارد أن يكون اسمًا متعيّنًا،

السرد الديستوبي: المفهوم والتاريخ ومراحل التطور

فقد يتمكن من التواري خلف صوتٍ أو ضميرٍ يصوغ من خلاله المروي بأحداثه ووقائعه، وعُني عنايةً كبيرةً برؤيته تجاه العالم المتخيل الذي ينتجه السرد، وموقفه منه.⁽⁹⁾

أما ما يصدر عن الراوي فهو المروي، وينتظم حتى يشكل مجموعةً من الأحداث المقترنة بأشخاصٍ ضمن إطارٍ الزمان والمكان، وتعدُّ الحكاية جوهر المروي، والمركز الذي تتفاعل كل العناصر حوله، وهو يقوم على مستويين مختلفين:

الأول: متوالية من الأحداث المروية بما فيها من ارتجاعاتٍ واستباقاتٍ وحذف، وهو ما اصطلح عليه الشكلاونيون الروس باسم "المبنى"، والثاني هو الاحتمال المنطقي لنظام الأحداث وقد عرف بالمتن، فالمبنى هو الانتظام الخطابي للأحداث في سياق البنية السردية، أما المتن فيحيل إلى المادة التي تشكل جوهر الأحداث في سياقها التاريخي.⁽⁹⁾ أما المروي له، فهو متلقي الحكاية أو المرسل إليه، وهو السامع أو القارئ الموجه له القص، فهو ليس مجرد فرد تُقص عليه القصة، وإنما على النص أن يتضمن ما يشير إلى أنه موجه إلى جمهور أو قارئ معين. وليس ثمة سرد إلا ويستدعي ثلاثة: راوياً ومروياً، ومروياً له، والمروي له شخصٌ يوجه إليه الراوي خطابه، والاهتمام به يجعل البحث في البنية السردية أكثر موضوعيةً من ذي قبل.⁽⁹⁾

من هنا يتضح أن العمل السردى لا ينشأ من فراغ، وإنما هو ضرورةٌ يوجد لها السارد أو المؤلف من أجل إنجاز اللغة في شريطٍ حيٍّ يعالج أحداثاً متخيلةً أو واقعيةً في زمانٍ ومكانٍ محددين، وهذا الإنجاز في النص السردى يكون من حصة السارد الذي قد يكون المؤلف نفسه، أو صوتاً ثانياً (راوياً، والراوى غير الروائي) قدّمه الروائي وأنجزه في درجةٍ على مستوى معين من المستويات المختلفة للرؤية التي يمثلها. ومن خلال السارد يتجه الخطاب نحو السرد، وقد تتصف بعض أجزاء الخطاب بوظيفةٍ واحدةٍ هي نقل الذاتيّة القائمة على الضمائر المنفصلة وأسماء الإشارة وأزمنة الأفعال وأجزاء أخرى ذات صلة بالواقع الاجتماعي.⁽¹⁰⁾

(2)

الجزر اللغوي اللاتيني لمصطلح ديستوبيا:

يتشكل الجزر اللغوي لكلمة DYSTOPIA من مقطعين: كلمة (Utopia) مضافاً إليها (مقطع/ بريفكس) هو Dys، وهو المقطع الذي إذا أضيف للكلمة السابقة يقلب معناها إلى الضد، وهذا التركيب دارج في اللغة اللاتينية، فنقول على سبيل المثال: Euphemism معناها التلطف، وحين نضيف إليها مقطع dys تصير Dysphemism، أي التوعر (عدم التلطف)، وهكذا في Dystopia.

ومصطلح الديستوبيا، حسب معجم أكسفورد الإنجليزي بمعنى (المكان الخبيث) وهو الوجه الآخر أو (النقيض) لليوتوبيا، الذي يعود إلى أفلاطون، ولكن من المؤكد أن الكاتب توماس مور (1535-1478) Thomas More هو أول من استخدم مصطلح "اليوتوبيا" في عام 1516، في كتاب له يحمل العنوان نفسه، في وصفه جزيرة خيالية في المحيط الأطلسي منتقداً حالة إنجلترا في ذلك الزمن.⁽¹¹⁾

وجاء انتقاد توماس مور لحالة إنجلترا؛ إذ كان المأمول في تلك الفترة التاريخية إنجاز الإصلاحات الاقتصادية والدينية التي دعا إليها بالطرق السلمية غير أن هذا الأمل تبدد بعد سنوات قليلة، واتضح أن الإصلاحات لا يمكن أن تتم إلا عن طريق العنف والصراعات المذهبية. إلخ.⁽¹²⁾

وفي تعريب الكلمة يقال: الديستوبيا أو (المدينة الفاسدة) هي نقيض مصطلح اليوتوبيا أو (المدينة الفاضلة)؛ أي إنها تمثيل للحالة المستقبلية التي يتم من خلالها تصور المواقف السلبية للأنظمة السياسية والاجتماعية، ومدى تأثير التكنولوجيا على حياة البشر عمومًا.

وقد كان من ترجمات كلمة يوتوبيا الطوباوية التي تشير إلى معاني السعادة والحسن، ويشير إلى مكان متخيل فاضل يمنح السعادة لمواطنيه، والطوباوية لها جذر عربي صريح أخذ من مفردة "طوبى" والطوبى تعني في المعجم الوسيط الغبطة.⁽¹³⁾

وقد وردت كلمة طوبى في القرآن الكريم في قوله تعالى في سورة الرعد واصفًا المؤمنين ومن يعملون الصالحات بقوله تعالى: (الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب).⁽¹⁴⁾

ولكننا نعتقد أن كلمة "Dystopia" تشكّلت من إضافة المقطع اللاتيني "dys" التي تعني "سيء" إلى كلمة "Utopia"؛ إذ دخول المقطع "dys" ينفي أو يضاد المعنى الأصلي للكلمة المدخول عليها.

(3)

الديستوبيا مصطلحاً ومفهوماً:

أطلق على رواية الديستوبيا أحياناً رواية مناهضة اليوتوبيا أو anti-utopia، وهي التي تسعى إلى ابتكار عوالم افتراضية مشتقة من الواقع وموازية له.⁽²²⁾

وإذا كانت اليوتوبيا تميل إلى تضيخيم ما هو مفيد بالفعل في مجتمعاتنا، كالمبادئ الأخلاقية السامية والعلم والثقافة والفنون، أي باختصار مشروع مدينة مثالية تحكمها مبادئ فلسفية كما رسم معالمها أفلاطون في عمله الفلسفي الضخم "الجمهورية"، الذي كتبه بين 380 و370 قبل الميلاد تقريباً، فإن الديستوبيا تبقى في جدال مفتوح مع اتجاهات الحاضر السيئة عبر رؤى قاتمة ومؤلمة وخائفة، كالاستبداد والأوبئة والحروب. وأدب الديستوبيا هو أدب خيالي يتحدث عن مجتمع فاسد أو مخيف، تسوده الفوضى ويحكمه الشر المطلق، من أبرز معالمه القتل والخراب والقمع والفقر والمرض، وفي الوقت نفسه، يسعى أدب الديستوبيا إلى تنبيهنا وفتح آفاق المتلقين إلى المخاطر التي تنتظرنا في المستقبل القريب. وعلى الرغم من أن الرواية الديستوبية لها نصيب كبير من الخيال و/أو "التخيل"؛ لأنها تتخيل عالماً مستقبلياً مليئاً بالظلم والفساد، إلا أن ما يحدث في الواقع أصبح لم يعد مجرد خيال، بل حقيقة واقعة، تكشف عن نفسها بين الحين والآخر في هذه المنطقة أو تلك، تحت أكثر من شكل ومسمى، خصوصاً في تلك الدول التي لا تولي الثقافة أي اهتمام، وتتجه نحو الكسب المادي والجشع الرأسمالي على حساب القيم الأخلاقية.

وإذا كان فلاسفة اليوتوبيا قد انطلقوا من معاينة الظلم الواقع في مجتمعاتهم، فحلّموا بمدينة فاضلة تحقق السعادة لمواطنيها، فإن الأدباء والروائيين الغربيين والعرب لاحظوا هم أيضاً ما يعتور مجتمعاتهم من ظلم وتفكك وانحلال، وأن المكان المثالي ليس موجوداً في هذه الدنيا، التي يحلُّ بها صنوف التمييز والفقر والطبقية، فاجتروا مصطلحاً نقيضاً لليوتوبيا أو للطوباوية أسموه ديستوبيا أي (المدينة غير الفاضلة أو الفاسدة).⁽¹⁸⁾

ومن هنا يتضح أنه مثلما كانت اليوتوبيا مفهومًا فلسفياً أفلاطونياً يعني المكان الجيد، فإن الديستوبيا مفهوم فلسفي عكس مفهوم اليوتوبيا بمعنى المكان السيء الذي ينتشر فيه الفقر والظلم والمرض؛ إذ يُستخدم المصطلح

السرد الديستوبي: المفهوم والتاريخ ومراحل التطور

على وجه خاص بغية الإشارة إلى مجتمع وهمي موجود غالباً في بيئة مستقبلية سيئة، وتكون اتجاهاته وغاياته متشائمة ورهيبة.⁽²²⁾

وقد تطور هذا النوع الأدبي الذي انتشر قبل أكثر من مئة عام، في بيئة افتراضية لمستقبل غير منظور مع ديناميكيات اجتماعية وسياسية تصل حدّ التطرف، كما في كلاسيكيات الأدب الإنكليزي، مثل "سيد العالم" لروبرت هيو بنسون (1907)، ورواية "1984" لجورج أورويل، ورواية "أمير الذباب" لوليم غولدينغ (1954).⁽²³⁾

السرد الديستوبي: التاريخ ومراحل التطور:

(1)

يعد سرد الديستوبيا من الأنواع المندرجة تحت أدب الخيال العلمي، وقد تعزز وجوده بُعيد الحربين العالميتين: الأولى والثانية؛ إذ كانت ظروف الحربين العالميتين الأولى والثانية مؤثرة على النفسية البشرية، بعدما كشفت آثار الدمار التي أودت بالقيم الأخلاقية، وقد تأثر الأدب الغربي بذلك؛ إذ غيرت الحرب تفكير الناس فقد غيرت تفكير الأدباء والفلاسفة تغييراً جذرياً في الرؤى والانعطافات الفكرية والأيدولوجية، فبدأ الأدب بالعموم والرواية خاصة بطرح أسئلة فلسفية حول الموت والحياة والغاية والهدف والعدالة والظلم، لتعبر عن معاناة الأجيال التي عاينت تلك الحروب، ولتظهر ما يسمى بـ "سرديات الحروب" التي باتت عنصراً مهيمناً على النسق العام لمعظم الروايات التي برزت في الحرب العالمي الثانية.⁽¹⁵⁾

من هنا ليس مستغرباً أن يكون الغرب أسبق من العرب في إنتاج هذا النوع من الأدب، ثم انتقل هذا إلى العرب بفعل التثاقف والظروف السياسية والاجتماعية في الأوطان العربية. وإذا كانت الرواية الكلاسيكية قد دأبت على تصوير الحياة البرجوازية أو (الطبقة الوسطى) إذ ارتبطت نشأة الرواية بالطبقة الوسطى وبسياقاتها التاريخية والاجتماعية، فقد تطورت الرواية أو تحولت باتجاه تبني التعبير عن الواقع، فانتعشت الرواية الواقعية لتعبر في البداية عن الواقع السوداوي أولاً، وهذه سميت الواقعية التسجيلية، ثم عبرت عن واقع الكادحين ومعاناتهم، وإيمانهم بالتقدم البشري، إلى أن وصلت إلى الواقعية النقدية وهي التي تمثل الرؤية الاشتراكية.

ولما كانت الرواية هي من أكثر الفنون استيعاباً للقضايا الاجتماعية فقد ساهمت التحولات في طروحاتها ومرورها بتحويلات كثيرة إذ كانت تستجيب لكل مرحلة جديدة من مراحل التطور التاريخي والاجتماعي والسياسي، فضلاً عن استجابتها للأسئلة الوجودية والفلسفية. ونظراً للحروب العالمية والكوارث ومعطياتها التي هزّت الضمير الإنساني، بات الإنسان أكثر تشاؤماً لما أحسه من دموية وخوف على مستقبله ومستقبل الأجيال القادمة، فبدأ يصور جانباً من هذا العبث الإنساني بمصير الإنسان لينتج أدباً مضاداً للتفاؤل ومغرقاً في رؤية تشاؤمية لمستقبل البشرية.

ومع بعض الكتاب الغربيين بدأ التنازل عن الواقعية، ولم يعد الواقع مطلب الرواية المعاصرة، بسبب ماديتها وتوحشها، فأخذت الرواية منذ الربع الأول من القرن العشرين تبحث عن التحرر من ضوابط الواقعية، فاستعاضت عنها بموضوعات لاعقلانية كما فعل جيمس جويس، وبروست، كافكا في قصة "التحول"، فبرز ما يسمى بالسرد "اللاواقعي".⁽¹⁶⁾

(2)

لقد تأخرت الرواية الديستوبية في الظهور في الوطن العربي نسبياً، لأسباب اجتماعية-فنية، لا سيّما مع المراحل التاريخية التي ارتفع فيها الصوت القومي، وسادت فيها التيارات السياسية اليسارية التي انطلقت من رؤية تقدمية متفائلة للأدب، فسادت النماذج الروائية الجمالية البطولية والثورية القادرة على تغيير الواقع، والتي ستنتصر رغم قسوة ظروفها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. ولكن الانكسارات والهزائم التي أصابت البنية الاجتماعية الثقافية العربية غيرت في طبيعة التعاطي مع الفن، وانزاحت في البنية الجمالية للرواية؛ إذ لم يعد شاغلها بث التفاؤل، بقدر ما انشغل الروائيون العرب بصياغة فنية جديدة، تشاؤمية، وصادمة، وقاسية، وأكثر قدرة على تعرية الواقع الذي يزداد فساداً وسوداوية، فكانت رواية الديستوبيا التي تقدم تمثيلاً جمالياً للواقع يتفوق على فساد وسوداويته.

وقد ألهمت الثورات العربية التي أطلق عليها ثورات الربيع العربي أقلام بعض الروائيين نتيجة انهزام الثورات العربية في كلٍّ من مصر وليبيا وسورية وتونس بسبب عدم تحقيق تلك الثورات أهدافها التحررية، أو بسبب سرقة تلك الثورات التي كانت تروم التخلص من الأنظمة الاستبدادية؛ فظهرت مجموعة من النصوص الروائية العربية التي قدّمت نماذج مختلفة للمدينة الفاسدة، وهي تمثل، على الرغم من تقاربها في الطرح، الخطابات الشجاعة التي تقول الحقيقة كاملةً مهما تكن موجعة. وتعني الشجاعة هنا اكتشاف ظلمة الحاضر وإثباتها بإبطال الأضواء التي تشعّ من العصر، أي عدم تضليل الآخرين وتعليهم بيوتوبيا الثورة.⁽¹⁷⁾

كما ازدادت شعبية الروايات الديستوبية والإقبال عليها بشكل غير مسبوق بين الفتيان مع مطلع القرن الحادي والعشرين، وحازت نجاحاً تجارياً هائلاً، تجاوز حتى مبيعات سلسلة أفلام "هاري بوتر"، لمؤلفتها الكاتبة البريطانية جوان رولينغ، Joanne Rowling. وتتصف الروايات الديستوبية بخصائص مشتركة، ومنها على سبيل المثال لا الحصر أن الرواية الديستوبية تشتمل على قصة ظلم، أو تعسف، أو اعتداء على حقوق الآخرين، وهذه القصة غالباً ما تشكّل عمودها الفقري، وعادة ما تستمد القصة حُبكتها ومقوماتها من مجتمع منقسم، ولا يهمّ ما إذا كان الأمر يتعلّق بأحياء أو مناطق أو دول، فإن السيطرة على الوضع تكون دائماً في قبضة شخص واحد يهيمن على البلاد والعباد من خلال تمكين بذور الخوف في نفوسهم.⁽¹⁸⁾

ولكن هل من علاقة بين الأدب الديستوبي والأدب العجائي؟

ذهب بعض الباحثين إلى أن رواية الديستوبيا تنتمي إلى أدب اللامعقول الذي تعود جذوره إلى القرن التاسع عشر، وهو أدب ذو نزعة رومانسية، تنقلب على الخضوع لقوانين العقل والأعراف المألوفة.⁽¹⁹⁾

ونعتقد أن الرواية الديستوبية لا تمثل جنساً أدبياً ذا هوية أجناسية؛ لأنه يُشترط في كل جنس، على وفق جيرار جينيت، أن يشرف بطريقة تراتبية على عدد من الأجناس التجريبية وأن يحتويها؛ فالأجناس الأدبية تشمل معايير تخضع للجانب الموضوعي، وليس للجانب اللساني أو الشكلي، فالرواية جنس يتضمن أنواعاً، من جهة الموضوع، مثل رواية المغامرات أو الرواية البطولية أو البوليسية وغيرها، ويجب ألا نحد هذه الأنواع بحدود، فمن الممكن توسعها واستحداثها... وهكذا شأن الروايات في تجدد واستحداث، "وستوجد أنواع أخرى في المستقبل لا نتصورها نحن اليوم على الإطلاق".⁽²⁰⁾

ولما كان الأدب الديستوبي يندرج تحت "مظلة أدب الخيال العلمي"، ويصف مجتمعاً سلبياً مظلماً يُمور بالفساد والظلم والقمع معبراً عن الواقع السياسي والاجتماعي، وأحياناً السيطرة الحكومية والتضييق على الحريات الفردية، ويقوم على عناصر خيالية، وكان الأدب العجائبي نوعاً من الأدب الخيالي يصف عالماً واقعياً معقداً، ويضيف إليه عناصر خيالية وغريبة بشكل غير منطقي وغير متوقع وقد يلجأ الروائيون للعجائبية لإظهار أن العلاقة بين الواقع والخيال قد لا تكون بعيدة، بأسلوب شاعري مفارق، ويضم عناصر من الواقع والتاريخ والخيال - لذا يمكن اعتبار الديستوبيا والعجائبية ينهلان من منبع واحد يقع بين الواقع والخيال، فالعجائبية أيضاً تحفل بالمفارقات والمتناقضات في الحياة، وتضم عناصر من الواقع والتاريخ والخيال، وبصفة عامة، تعد الديستوبيا والعجائبية لونين من السرد الخيالي الذي يفتح آفاقاً، للاستكشاف والتعبير عن مختلف الأفكار والمفاهيم بطريقة خيالية وغير مألوفة، وتعكس العالم بطريقة مختلفة ومبتكرة.⁽¹⁾

وللرواية الديستوبية أليائها الدقيقة، وتستند إلى جرعة مضاعفة من الخيال وابتداع أبطال أشداء ذوي سمات محددة. أما خصوصية هذه الروايات فتكمن على وجه التحديد في استخدام مستقبل بعيد وأحداث خيالية، للتنديد بالآفات والكوارث التي تجتاح مجتمعاتنا المعاصرة، لكنها في الآن ذاته، تتجاهل تماماً أو لا تُحقق في جذورها، وعلى رأسها الحقبة الاستعمارية وما نتج عنها من هيمنة وتقسيم مجحف لموارد الأرض ولمصائر سكانها أيضاً.⁽²¹⁾

خصائص الرواية الديستوبية:

(1)

يرى عبد الحميد الحسامي أن (رواية الديستوبيا) لا تمثل جنساً أدبياً ذا هوية أجناسية محددة المعالم، لكنه يمثل نوعاً روائياً، له خصائصه التي تتشكل من التصرف في بنية المتخيل الروائي. وأن المنجز الروائي الديستوبي - بكافة أشكاله - كان استجابة لمؤثرات عميقة في الفكر الإنساني، وامتداداً لتجليات عديدة مهدت له؛ على مستوى الخطابات الدينية، والأدبية، والفلسفية، وأدب الخيال العلمي، وتحولات المجتمع الرقمي والفنون البصرية، فضلاً عن تحولات الواقع، وكلها أسهمت في نشأة الهاجس الديستوبي في متخيل الرواية الغربية؛ سواء اشتغلت على المستقبل المرعب بسبب الاستبداد السياسي، أم اشتغلت على رعب التقنية، أو الأوبئة، أو غير ذلك.⁽²⁾

لعل من أبرز خصائص الرواية الديستوبية فقدان الفردانية (الحرية الشخصية)، والفقر، واليأس، وغالباً ما تدور أحداث الرواية الديستوبية حول سلطة مركزية تسيطر على السياسة والاقتصاد، أو سلطة اجتماعية تهتمش الأدنى منها، كما في يوتوبيا لأحمد خالد توفيق، وقد تحتوي على حدث يفتعله النظام أو الدولة، وعادة ما يُخلق بهدف الحفاظ على تماسك السلطة والإيحاء بأن كل شيء يسير على ما يرام، بغية السيطرة على المجتمعات الهشة، والعمل على تقويض أية محاولة للتطور الاجتماعي والاقتصادي. وثمة عنصر آخر مهم في رواية "الديستوبيا" هو الدور الذي يلعبه العلم. هذا ضروري ليس فقط لنقل فكرة الإسقاط في عالم مستقبلي بشكل أفضل، بل لكونه السلاح الأقوى تأثيراً بيد السلطة.

ومن السمات المميزة للأدب الديستوبي، أن القارئ يدرك، وهو منغمس في عالم كارثي مروع، أن هناك عيوباً ومشكلات رئيسة يريد المؤلف كشفها والتنديد بها، وصفحة بعد صفحة، يوقن أن ما يقرؤه ليس مُخترعاً تماماً وليس بعيداً عما يعيشه كل يوم، وهو ما يخلق في نفسه مخاوف أكثر من الآمال. والأدب الديستوبي هو غير أدب

الواقع المرير المتمثل في أمثلة من أدب السجون، وثقافة العنف، والمواجهة بين المثقفين والسلطات في العالم العربي. وقد أورد الدكتور يحيى عباينة إضاءة مهمة عن العناصر التي تجعل من السرد عملاً ديستوبيا ومنها الخراب والخيال العلمي. كما أن الأعمال الديستوبية لا تتعلق بالتجريب، وإنما برؤية موضوعية وفلسفية لمستقبل العالم والبشر، بمعنى أن المكوّن الرؤيويّ ذو طابع ديستوبي.⁽²¹⁾

وعلى الرغم من أن الرواية الديستوبية تنبأ دائماً في المستقبل إلا أنها أيضاً تدرس الواقع وتكشف منه رؤى المستقبل، وتعبّر عن مآلاته، حتى إن بعض الكتاب يرون أنها تدخل ضمن الرواية الواقعية الجديدة، حين يصفها بقوله: "إن هذا النوع (يقصد الرواية الديستوبية) هو أكثر ما يعبر عن واقعنا رغم أن أحداثه دائماً تقع في المستقبل".⁽²³⁾

وإذا رأى بعض الباحثين أن الرواية الديستوبية تمثل واقعية جديدة، فقد رأى آخرون أن بعض روايات الديستوبيا تنتهي إلى الواقعية السوداء، إذ تعكس المخاوف من ثقافة معاصرة سائدة، حين تستلهم بشكل متزايد من أسوء تصورات أنفسنا والواقع الحالي، مما يجعل من الصعب في كثير من الأحيان التمييز بين الترفيه والواقع.⁽²⁵⁾

(2)

ويبدو أن هذا الرعب وتلك السوداوية، يشكّلان في نفوس اليافعين حافزاً، ليس للقراءة والمتابعة، بل للعمل من أجل السلام والعدالة، فقد باتوا يدركون، بفضل الإعلام ووسائل التواصل الاجتماعي، أن ليس كل ما يلمع ذهباً، وأنه غالباً ما تستغلهم شركات التسويق والشركات المتعددة الجنسيات التي تجعل الصور النمطية السلوكية لديهم مصدراً لأرباح خيالية. إن نجاح هذا النوع الأدبي في جذب ملايين الأشخاص وتوحيدهم تحت رسالة واحدة، يعني أن القوة الحقيقية للديستوبيا ربما تكمن أيضاً في قدرة الأجيال الجديدة على استقراء ما هو خيالي في هذه الروايات وتكييفه مع واقعهم، حتى يكونوا قادرين على تغيير نمط السلوك العام، وأنه لا يزال من الممكن القيام بعمل جدّي وليس افتراضياً فحسب.

وغالباً ما تنشأ الرواية الديستوبية في ظلّ حكمٍ مستبد، أو أحكام قمعية، أو توترات اجتماعية ناشئة عن وجود فوارق طبقية بين الأغنياء غني فاحشاً، والفقراء فقراً مدقعاً، فضلاً عن غياب الحريات أو تأكلها. ومن هنا تحمل الرواية الديستوبية في أعماقها نقداً للخلل السياسي أو الاجتماعي، أو الاقتصادي، ودعوة مبطنة للتغيير، أو الإصلاح، وتحقيق العدالة الاجتماعية.

لهذا يقول ميشيل فوكو: "لم يبتكر روائيو الديستوبيا رعباً جديداً، لكنهم ابتكروا نظاماً جديداً للرعب، ووضعوا خرائط حديثة للمدينة الفاسدة، إذ كان لا بدّ لهم من تجاوز جماليات العصور البائدة بحرسها الثقافيّين القدماء، ليؤسسوا ميتافيزيقيا جديدة".⁽²⁶⁾

وقد يبدو هذا الأمر دعوة ملحة لمدينة فاضلة أخرى، أسوة بدعوة أفلاطون، ولكن بطريقة معاكسة، وبخاصّة أن معظم الروايات الديستوبية تقدم نفسها في البداية على أنها فاضلة، لتتحول مع توالي فصولها إلى رعب مطبق أو (مدينة فاسدة) كما في رواية أحمد خالد توفيق الموسومة بـ "يوتوبيا"؛ إذ تعلن في عنونها اسم "يوتوبيا" على سبيل المفارقة، وحين يذهب القارئ لاستكشافها يجدها تمثّل ديستوبيا تمتلئ بالرعب والظلم والفساد.⁽²⁷⁾

لا بدّ من معرفة تاريخ اليوتوبيا، وإن يكن متعذراً تحديد تاريخ دقيق وجامع مانع لأية حركة أدبية أو نقدية؛ لأن لكل حركة إرهاباتها أو مقدماتها التي تسبق ظهورها قبل أن تستقر أو تتكرّس، قبل الذهاب لمعرفة تاريخ الديستوبيا؛ آية ذلك أن اليوتوبيا أسبق في الظهور والتكريس، وعليه يجب الوقوف على المصطلح ومفهمته. تعود جذور مصطلح اليوتوبيا Utopia، الأولى، كما هو معروف، إلى أفلاطون (Platon 427-347 ق.م) في "جمهورية الفاضلة"؛ إذ حلم بعالم مثالي طوباوي يزخر بالسعادة والغبطة، ويحقق المثل العليا في الحكم والسياسة، وقد صاغ أفلاطون جمهوريته الفاضلة مستبعداً منها الشعراء لأنهم وفّق نظره يفسدون النشء من جهة تربوية، وأقصاهم بما يتعدى التهميش إلى الإعدام مجازاً؛ لأنهم يركّزون على العاطفة أكثر من البرهان كما يفعل الفلسفة.⁽²⁸⁾

وفي القرن السادس عشر الميلادي صاغ العالم الإنكليزي توماس مور مصطلح "يوتوبيا" في كتابه "ليبللوس" (Libellus) عام 1516 وهو مصطلح يصف به المجتمع المثالي الذي يسوده الانسجام والمساواة، حيث تجري وتتطور أحداث الرواية الطوباوية، وهي تقريباً الاختبار الحقيقي لما يجب أن يكون عليه الواقع المعاصر، أي كنوع من الهروب من الحاضر واللجوء إلى العالم الذي يرغب فيه المرء، ولكن موضوعياً هو بعيد المنال. وقد صاغ كلمة يوتوبيا في نطقها اليوناني، وقد اشتقها من الكلمتين اليونانيتين Ou بمعنى "لا" و Topos بمعنى "مكان"، وتعني في مجموعها "ليس في مكان" ولكنه أسقط حرف O وكتب الكلمة باللاتينية utopia ووضعها عنواناً لكتابه هو، لتغدو أشهر يوتوبيا في العصر الحديث. وقد استخدم المصطلح "يوتوبيا" في كل اللغات الأوروبية، وفي الترجمات العربية أيضاً ليعني نموذجاً لمجتمع خيالي مثالي يتحقق فيه الكمال ويتخلّص من الشرور التي تعاني منها البشرية.⁽¹²⁾

وهذا لا يتعارض مع أن أول من تصور عالم "اليوتوبيا" هو أفلاطون بدءاً في ما سُمّي بـ "المدينة الفاضلة"، وهي النموذج الأول لكل اليوتوبيات التي يلعب الخيال الدور الأكبر في اجترانها، وانتهاء بروايات الخيال العلمي. وقد دأب الفلاسفة، منذ أفلاطون، على رسم صورة طوباوية يوتوبية للمستقبل، يتشكل في هيئة "مدينة فاضلة" تتحقق فيها السعادة الأبدية، وتلبي نزعة الخلود لدى الإنسان. كما اتجه الأدباء -شعراء وكتّاباً- لرسم ملامح مدن فاضلة سعيدة، تعوض الإنسان عن خسائره المتكررة في الحياة، وربما عن خروجه من جنة عدن في القصة القرآنية المعروفة. أما شيوع مصطلح "يوتوبيا" الذي يناقض مصطلح "ديستوبيا" فقد بدأ شيوع هذا المصطلح للدلالة على (نوع أدبي خاص)، منذ 1516، وهو تاريخ إطلاق توماس مور مصطلح "يوتوبيا"، على الرغم من أن الإرهابات الفكرية لمفهوم اليوتوبيا كانت أسبق من ذلك؛ لأن الفكر الإنساني الطوباوي الذي يحلم بعالم مليء بالسعادة متجذر في الفكر البشري سواء في جمهورية أفلاطون أم في مدينة الفارابي الفاضلة. وهذا جزء من الفكر الخيالي الذي لا يرتبط بواقع معيش ويتجاهل طبائع الأشياء والشروط الواقعية اللازمة لتحقيق تلك التصورات بدون اعتبارات واقعية أو مفترضة.⁽²⁹⁾

لكن الأمر المثير للتساؤل، وفقاً للباحث اليميني الحسامي، هو أن ينشغل المنجز الجمالي -بشتى صنوفه- برسم ملامح (المدينة الفاسدة) -وليس المدينة الفاضلة- والعمل على تخيل مستقبل مروع تعيشه الإنسانية؛ مستقبل

تسوده نزعة التوحش، وتستحوذُ عليه سلطةُ الأقوياء، ويغدو الإنسان فيه ضحية أخيه الإنسان؛ أو ضحية ما يقوم هو بإنجازه.⁽³⁰⁾

وفي محاولة جادة للباحث اليميني الحسامي لتتبع المسار التاريخي لظهور الديستوبيا كشف عن التعاقب الزمني لمسار الظاهرة الديستوبية تاريخياً، ومدى تطورها منذ بواكيرها، فوجد أن رواية "العقب الحديدية" لجاك لندن، التي أُلِّفت سنة 1907 هي البداية التاريخية، وحتى استوت على سوقها في نموذجها الأكثر نضجاً واكتمالاً لدى جورج أورويل في روايته الشهيرة "1984" التي أُلِّفها سنة 1948.

وفي كتابه "نهاية اليوتوبيا" يبدّر راسل جاكوبي بنهاتين: نهاية الأيديولوجيا، بعد وقوع الفكر الشيوعي والإشتراكي في مأزق كثيرة، وخسارة الشيوعية معركة الأفكار مع الغرب، وإحالة اليوتوبيا إلى التقاعد، مستعرضاً عدداً غير قليل من الكتاب والمبدعين الذين عبّروا عن "نهاية الأيديولوجيا" مثل الروائي الفرنسي ألبير كامو Albert Camus الذي انتقد جهود الاشتراكيين الفرنسيين الحديثة لعقد مصالحة بين الماركسية والأخلاق. كما استعرض استخدام ستيوارت هيوز Stuart Hughes الأستاذ في جامعة هارفارد مصطلح "نهاية الأيديولوجيا" في بحث له عن المثقفين الأوروبيين، معبراً عن أن اليسار أصبح يفتقد الإقناع والأفكار. ويؤكد جاكوب أنه كان ثمة إجماع تقريبي في العالم الغربي على انتهاء عصر الأيديولوجيا وتفضيل دولة الرفاه والسلطة اللامركزية ونظام يقوم على الاقتصاد المختلط والتعددية السياسية.⁽³²⁾

(2)

وفي ظل دولة الرفاه والاقتصاد المختلط وما أشاعته الرأسمالية من طبقة مقيمة، وجري وراء الأشياء أدّى إلى بروز ما سميّ بظاهرة (التشيؤ) التي تمثل اغتراب الإنسان عن نفسه، وتقديسه للأشياء، بدأ السرد الديستوبي في الظهور مع روايات عدد من الروائيين الغربيين.⁽³⁹⁾

ويُعتَقَد أن أول من ابتدع مصطلح "ديستوبيا" Dystopia، هو الفيلسوف الإنكليزي جون ستيوارت ميل، عام 1868، ويعني "المكان السيء"؛ إذ وصف خصومه السياسيين في البرلمان بالفساد، منتقداً سياسة الحكومة الإيرلندية المتعلقة بالأراضي، متهماً إياها بالفساد.⁽³³⁾

وفي تتبعنا لمسار الرواية الديستوبية تاريخياً وجدنا أكثر من رواية سبقت رواية جورج أورويل، من أبرزها رواية: "نحن الآخرون" للروائي الروسي يفغيني زامياتين، Yevgeny Zamyatin التي أُلِّفت سنة 1920، وترجمت للإنكليزية سنة 1924، وتعد اليوتوبيا المضادة لزامياتين رؤية مستقبلية فهو يصف المجتمع الذي يفترض وجوده بعد مرور ألف عام على إقامة الدولة الوحيدة التي تحكم العالم بأسره، وعشية الاستعداد لغزو الكون كله بفضل آلة مربعة يمكن أن تطلق إلى الكواكب الأخرى. ثم تأتي رواية "عالم طريف شجاع"، لألدوس هكسلي Aldous Huxley التي كتبها سنة 1932، وهي تشبه رواية زامياتين من نواح عديدة، بسخريتها من المجتمع الأمريكي، مروراً برواية "مزرعة الحيوان" لجورج أورويل، التي أُلِّفها سنة 1945، وبعدها جاءت رواية أورويل (1984) التي صدرت عام 1948.⁽¹²⁾

ولعل هذه العيّنة من الروايات تكون كفيلاً بأن تقدم ظاهرة (الرواية الديستوبية) للمشاهد النقدي، وتكشف عن أهم تحولاتها التي مرت بها، وأبرز معالمها: الرؤيوية، والجمالية، وهي استشراف من نوع ما، من قبل المبدعين لواقعهم المؤلم، وكيفية توقعهم لمستقبل يتراءى لهم عبر حاستهم الإبداعية.⁽³⁰⁾

ونعتقد أن التاريخ الذي حدده الحسامي للرواية الديستوبية وأعادته إلى رواية (العقب الحديدية) The Iron Heel لمؤلفها جاك لندن Jack London التي نشرت للمرة الأولى عام 1908 في الولايات المتحدة الأمريكية، هو تاريخ مهم للريادة في مجال أدب الخيال العلمي؛ إذ يتنبأ الكاتب بالمتغيرات المستقبلية اجتماعيًا وسياسيًا، ولكنه لم يولِ عناية للتحولات التكنولوجية، وهذا تظل فكرة السبق التاريخي صحيحة ومهمة، ولكن النضوج الفني كان من حظ من أتى بعده، وهذا أمر طبيعي في كل الحركات والظواهر الأدبية؛ إذ ترتبط الريادة بمسألتين: تاريخية تشير إلى السبق الزمني، وأخرى فنية وجمالية تتعلق بالتأسيس لظاهرة فنية أو جمالية جديدة تبرز لغة جديدة ورؤية جديدة يطورها اللاحقون ويستحق السابق أن يعدَّ معها رائدًا.⁽³⁴⁾

وفي القرن التاسع عشر صدرت رواية (برتقالة بقلب الساعة) A clock Orange لأنطوني برجس Anthony Burgess؛ إذ صدرت 1962، وقد اتخذت من القسوة والعنف المتبادل حول الشباب وانتشار الجريمة والقضايا الأخلاقية والاجتماعية موضوعًا لها وتجري أحداثها في مستقبل ليس بعيدًا. كما صدرت رواية هل يحلم الآليون بالخراف الكهربية (Do Android Dream of Electric Sheep?)، للكاتب فيليب ديك Philip Dick 1968، يصور الكاتب هجرة البشر من كوكب الأرض في مستقبل قريب مما يدفع إلى إنتاج آليين يقومون بأداء أعمال البشر، وهذا يؤدي إلى أخطار مريعة تحيط بحياة البشر. ومن الروايات الغربية رواية (فهرنهايت 451) للأمريكي راي برادبوري Ray Bradbury التي قامت على تخيل إحراق الوعي والتراث الإنساني.

ولعل مما يحسن التنبيه عليه في هذا السياق أن ثمة رواية أردية بعنوان "وبائي بيجان" ومعناها "انتشار المرض" كتبها مؤلفها (أسرار أحمد) المكّي بـ "ابن صفى" عام 1958، أثناء فترة الحكم العسكري في باكستان التي امتازت بالفوضى وفقدان الأمل، والخوف من المستقبل. ونتيجة لهذه البيئة المقلقة التي عاشها ابن صفى أقدم على كتابة روايته "وبائي ريجان" متصوراً مدينة ديستوبية يسودها الظلم والفساد الأخلاقي بسبب استبداد السياسات الوطنية والدولية. وتدور أحداثها حول الأسلحة البيولوجية التي تعتمد على الفيروسات والجراثيم لقتل البشر من قبل القوى الدولية المستبدة منهكة كل قوانين الإنسانية، وهذه رؤية استباقية من هذا الروائي قبل حدوث كورونا بأكثر من نصف قرن.⁽³⁵⁾

متخيّل الديستوبيا في الخطأ الروائي العلمي:
تكرّس مصطلح الديستوبيا أو (أدب المدينة الفاسدة)، مصطلحاً في الخطاب الروائي الغربي والعربي، مضاداً أو مفارقاً لمصطلح "يوتوبيا"؛ فمنذ نشأة الفلسفة، حلم أفلاطون المسكون بتأسيس المدينة الفاضلة، التي توفر السعادة الأبدية، ولكن هذه المدينة الفاضلة لم تتحقق إلا في أحلام الشعراء ورؤى الفلاسفة، ووصفت هذه الأحلام وتلك الرؤى بأنها تتطّلع إلى عالم لا يمكن تحقيقه وهو عالم "اليوتوبيا". ويقابل هذا المصطلح مصطلح آخر هو مصطلح "الديستوبيا" التي تعد النقيض لما يعرف بـ "اليوتوبيا".

وبعد أقل من ثلاثة عقود ظهرت رواية "عالم جديد شجاع" (Brave New World) للكاتب البريطاني ألدوس هكسلي Aldous Huxley التي نُشرت بالإنجليزية عام 1932، قد أسست بوضوح لـ "أدب الديستوبيا" وتنبأت بعالم غريب يتمادى فيه الباحثون في توظيف هندسة الجينات والاستنساخ بغية السيطرة على الأفراد، عبر التحكم في طبيعة الولادات وفق تصميم مراد له أن يسفر عن خمس فئات اجتماعية "النخبة، التنفيذيون،

الموظفون، وفتتان يتولى أفرادهما القيام بالأعمال الشاقة"، وهي فئات يتم توصيفها بالأبجدية اليونانية "ألفا، بيتا، غاما، دلتا وإبسلون". وقد وصفت هذه الرواية بأنها تحفة فنية، وعُدَّت من أعظم مائة رواية عالمية.⁽⁴⁰⁾ وقد أثبتت روايات الديستوبيا وجودها في الأدب الغربي معبّرة عن حياة الغربيين الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في ظل حربي عالميتين أزهدت أرواح الملايين من البشر، وقد باتت اليوم من كلاسيكيات الأدب الغربي، ويحسن أن نقدم بسطة نظرية حول عدد من تلك الروايات الغربية التي أسست وأصلت للرواية الغربية. كما جسدت الروايات التأسيسية الغربية لمن أتينا على أسمائهم وأسماء رواياتهم هذا النوع الأدبي حين رسمت حياة سكان مدن يعيش بعضهم تحت وقع الاستبداد والقهر والمحاسبة، مسلوبين من أبسط ما تمنحه الحياة من حرية، مطوقين بكاميرات مراقبة وضعها النظام لترصد بدقة جميع تحركاتهم، مستهدفة بالمراقبة والمحاسبة أفكارهم أيضاً.

وعند استعراض أسماء الروايات الديستوبية الغربية نجد عدداً كبيراً، منها روايتا جورج أورويل "1984" و"مزرعة الحيوان"، ورواية مارغريت أتوود "حكاية الجارية"، ورواية هيربرد جورج ويلز "آلة الزمن"، وروايتا كافكا "المحاكمة" و"التحول"، ورواية راي برادبوري "فهرنهايت 451"، ورواية كيم ستانلي روبنسون "بعد أن غرقت فينيسيا"، ورواية بونوا ديتيرتر "الصبية والسيجارة"، ورواية ألبير كامو "الطاعون"، وسواها من الروايات التي شكلت مع مثيلاتها تراثاً لرواية ديستوبية غربية.

وقد عبّرت الرواية الديستوبية الغربية عن هموم الغربيين السياسية والاجتماعية والاقتصادية والنفسية؛ إذ وجدنا بعضها ينقد الهيمنة الرأسمالية، وبعضها الآخر ينقد المؤسسة السياسية الاشتراكية كما في رواية "نحن" للروسي يفغيبيني زامياتين، وجاء بعضها مراثية للعالم الذي تهيمن عليه قوى سياسية تتوسل بالتقنية في إنجاب البشر وصياغتهم عبر برامج في مراكز هندسية متخصصة.⁽³¹⁾

وإذا كانت الرواية الديستوبية الغربية قد عبرت عن هموم الغربيين، وظروفهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، والنفسية، وشقت طريقها إلى الأدب العالمي، ورسّخت هذا النوع من السرد غير المتفائل، فهل نجح الروائيون العرب في التعبير عن واقعهم المُحْبَط، وقراءة مستقبلهم المظلم؟ أم ظلوا يدورون في فلك ديستوبيا الرواية الغربية؟

رواية الديستوبيا العربية:

(1)

لعل مما يلحظه الدارس على روايات الديستوبيا العربية أنها انطلقت من قلق كَثَّأها على مصائر بلادهم، وما تعانيه من إشكالية النظم الاجتماعية والسياسية، وليس من محاكاة الديستوبيا الغربية، وأن أكثر ما يتجلى فيها هو تراجع قيمة الإنسانية، إذ أصبح الإنسان هدفاً للقهر والاستلاب والقمع السياسي، أو بسبب تحوله إلى فأر تجارب يجري عليه أصحاب السلطة والنفوذ تجاربهم العلمية.⁽³⁶⁾

وحين يستعرض الباحث نشأة الرواية الديستوبية العربية يجد أنها برزت في منتصف السبعينيات نظراً لتعقد الحياة الإنسانية في المجتمعات العربية، واختلال الموازين الاجتماعية، واكتشاف الكتاب أن المجتمع المثالي الذي تغياّه الفلاسفة ليس موجوداً، بل لا يمكن له أن يوجد وبخاصة في ظل ظروف سياسية واجتماعية فاسدة. ومن

ثم فالرواية الديستوبية تنطلق من رؤية متشائمة لعالم مستقبلي يكرّس الطبقيّة، فيزداد البون بين الفقراء والأغنياء.

ويمكن اعتبار هذا النوع من الروايات روايات ما بعد حداثيّة، ويقصد هنا في الرواية المابعد حداثيّة أنها "تمثل الواقع وتعرضه وتبذل جهداً لتحسين الواقع المعيش ويكون لهذا الجهد الروائي نتائج وتأثيرات طيبة للغاية على صعيد الجمال، أو الحقيقة، أو الاتساق، أو المنظورات الروائيّة".⁽³⁷⁾

وتكشف الرواية الديستوبية العربيّة عن العوامل المعيقة لتحقيق أي تقدم اجتماعي أو اقتصادي لأسباب سياسية في الأساس، أملاً في تقديم رؤية تطمح لتغيير الواقع المعيش المظلم. وهي رؤية تصور جوانب سلبية في المجتمعات العربيّة، من زاوية واحدة يسلط فيها الكاتب الضوء على الفساد، والظلم، والفقر، وسوء الأخلاق، وهي تمثل الرؤية العامة التي يعمل كتاب الرواية الديستوبية على إبرازها، محاولين الإشارة بالرمز تارة، والتعبير بالنقيض تارة أخرى، ولعلّ من أبرز تلك الروايات المؤسسة للرواية الديستوبية العربيّة:

1. رواية "سكان العالم الثاني" لنهاد شريف، 1977. وهي قصة مجموعة من العلماء الشباب قاموا ببناء مدينة طوباوية في قاع البحر فراراً من حياتهم الصعبة، على الأرض.
2. ومن أمثلة تلك الروايات العربيّة التي تجسد علاقة الإنسان بالمدينة، ويمكن نسبتها للرواية الديستوبية، روايتا: "مدينة الموتى"، و "اللجنة" 1978، وللروائي المصري صنع الله إبراهيم.
3. رواية "هروب إلى الفضاء" لحسين قدري، 1981. وتحكي قصة ثلاثة من سكان كوكب الأرض الذين يسقطون بمركبتهم الفضائية على كوكب مثالي.
4. ومن الروايات العربيّة المحسوبة على الديستوبيا: الخرائط لعبد الرحمن منيف، 1981.
5. رواية "السيد من حقل السبانخ" لصبري موسى، 1984. وتدور أحداثها على الأرض في القرن الثالث والعشرين.
6. رواية "الإسكندرية 2050" للروائي الأردني صبحي فحماوي، 2009، وفكرتها استشرافية، أفاد فيها من حركية الديستوبيا المعاصرة التي ضربت العالم العربي وهزته من أقصاه إلى أقصاه، بدءاً من الهزائم المتتالية للعرب أمام الكيان الصهيوني، مروراً بثورات الربيع العربي ووصولاً إلى ما نحن عليه اليوم.
7. رواية "إيولا 76"، و "طيور أيلول" لربيع جابر، 2013.
8. رواية "عُطارد" للكاتب المصري محمد ربيع على رأس القائمة، الصادرة عام 2014، وهي رواية تصور مستقبلاً قاتماً يشهده العالم العربي في العام 2025.
9. رواية "روائي المدينة الأول" للروائي المصري عمر حاذق الصادرة عن دار الكتب خان، 2014؛ إذ قدم تصوراً ديستوبياً لما بعد الموت.
10. رواية "الانحناء على جثة ميت"، 2014؛ وفيها يطرح الروائي الأردني أحمد الزعتري تصوراً كابوسياً لمستقبل مدينة عمان، وقد منعها الرقابة بدعوى إساءتها للمجتمع.
11. رواية 2084... حكاية العربي الأخير" للروائي الجزائري واسيني الأعرج، 2016، وقد استلهمها من رواية جورج أورويل مقدماً تصوراً مخيفاً عن العالم العربي بعد 50 عاماً.

12. رواية "حرب الكلب الثانية" للروائي الفلسطيني إبراهيم نصر الله، دار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، 2016. وهي تجسد حرب الولايات المتحدة على العراق، وقد وصفت الرواية بأنها رواية فانتازية، ترسم خارطة مظلمة لعالم مستقبلي متوحش.

13. رواية "في البدء كانت الكلمة" للروائية أمل بوشارب، الجزائر، منشورات الشهاب، 2021.⁽³⁸⁾

(2)

لقد اضطلعت الروايات الديستوبية العربية بمسؤولياتها في عدة أمور سياسية واجتماعية واقتصادية ومنها توعية الجماهير بما يحدث في السياسة، ونقد الطبقية، والتثوير على الحكام المستبدين، من خلال قراءتها للحاضر، وتطلعها إلى المستقبل، وتنبيهها على الظلم والفساد الذي ينخر مؤسساتنا الاجتماعية والاقتصادية؛ وهذا بعض مما أبرزته الروايات الديستوبية للروائي المصري أحمد خالد توفيق⁽⁴²⁾ الذي نخصه ببعض التفصيل، لأنه يعد من أبرز الروائيين المصريين والعرب الذي يعد صاحب مشروع في السرد الديستوبي. فقد أصدر عددًا من السلاسل الروائية، مثل: سلسلة ما وراء الطبيعة، وسلسلة فانتازيا، وسلسلة سافاري، وقد أحصيت له أكثر من ستين عملاً بين روايات وسلاسل أدبية.

كما أصدر عديد الروايات ومنها أربع روايات تقع تحت باب الديستوبيا وهي: رواية "يوتوبيا" ورواية "في ممر الفئران"، ورواية "السّنجة"، ورواية شأبيب، وتكشف هذه الروايات الأربع عن سوداوية تغوص من خلالها شخصيات البناء الحكائي في أعماق مخاوف لا حصر لها من مستقبل قاتم، يتأسس في الأصل على واقع مرير يحيطه الإحباط في غياب التفاؤل، والسقوط في الهاوية. وتنبي الروايات الأربع عن عالم مليء بالفساد والفضي، كما تكشف عن وجه آخر من وجوه التخيل الأدبي؛ إذ تنبأ بمآسي مدينة منهار، يحكمها الاستبداد والظلم والفضي والتدهور التام للقيم، وصولاً إلى العدمية وانتفاء إنسانية الإنسان.

فرواية "يوتوبيا" على سبيل المثال وهي أولى رواياته الديستوبية أصدرها (2008) تدور أحداثها في مصر عام (2023)؛ إذ يتوقع أن مصر ستتحول إلى طبقتين: الأولى فاحشة الغنى والثراء وتمتلك كل وسائل الرفاهية، وتعيش داخل سور يحرسها المارينز الأمريكيان وهي (يوتوبيا) التي تقع في الساحل الشمالي، والثانية طبقة فقيرة فقراً مدقعاً وتعيش في عشوائيات، وهؤلاء هم الأغيار. يقوم أحد شباب يوتوبيا الذي جرّب كل المتع واللذائذ باصطياد شاب من الأغيار من سكان شوبرا على سبيل التسلية والتجريب والتمتع واللعب به تحصيلاً للمتعة ثم يقوم بقتله والاحتفاظ بجزء من جسده على سبيل التفاخر. وهكذا تجسد الرواية الصراع بين من يملكون كل شيء ومن لا يملكون شيئاً، متوقعاً مستقبلاً مظلماً لمصر بسبب وجود طبقتين: طبقة الأغنياء غنى فاحشاً، وطبقة الفقراء المُعْدَمين.

أما روايته الثانية "السّنجة" (2012)، فتجسد بين الواقعي والمُتخَيَّل، وترصدُ المناخ الديستوبي في منطقة من المناطق العشوائية، وهيمنة فئة من الخارجين عن القانون وتجار المخدرات على هذا المكان. ومن المظاهر الديستوبية فيها الفساد الأخلاقي، وموت الموت، والبعد عن الدين، والعنف، والفساد، والفساد الصحي، والقمع، والفضي.

وتطرح رواية "في ممر الفئران" (2016)، تساؤلاتٍ فلسفيةً ودينيةً عميقةً حول قدرة الإنسان على التغيير في عالم يسكنه الظلم والرعب، وتجسد عالمي الظلام والنور؛ إذ تدور حول شخصية "الشرقاوي"، الذي يدخل في غيبوبة

لم يعرف الأطباء لها سبباً، وفي أثناء إقامته في المستشفى ينتقل بشكل غريب إلى عالم الظلام، ليجد نفسه في مواجهة جماعة من الظلمة والجبابرة الذين لا يمنحونه أي أمل، ثم يدخل مع مجموعة من الشباب المتمردين في عالم الظلام الذين يطلقون على أنفسهم جماعة "النورانيين"؛ إذ طالبوا بالضوء كحق مكتسب فيصير مطاردًا من الشرطة، مسقطاً كل هذه الأحداث السوداوية على العالم العربي، مصداقاً للمثل الشعبي الشهير (إن غاب القط لعب يا فار)؛ فالسلطة باتت للفئران بسبب غياب القطط؛ فالرواية تطرح أسئلة أخلاقية معقدة فضلاً عن كونها نقداً لاذعاً للمجتمع.

وفي روايته "شآبيب" (2018)، ينسج أحمد خالد توفيق خيوطها حول العرب الذين تشظّوا في أنحاء العالم (أو تفرّقوا أيدي سباً) بعد أن ضاقت بهم أوطانهم، ويحلم فيها بدولة واحدة يجتمع فيها العرب بعدما تشتتوا في العالم، ليعيشوا في مكان أسماه "شآبيب" لا يضطهدهم فيه أحد، ولا يخيفهم أحد لتكون لهم دولة قوية تمنح بين ما تعلّموه في كل الحضارات، وكأن هذه الشآبيب هي "أرض ميعاد العرب"، بعد أن اضطهدوا واحتاجوا إلى وطن يسكنون فيه.

وفي مثل هكذا روايات، لا يملك صانع السرد إزاء كل ذلك إلا أن يرسل صرخات تذريراً واستغاثة من حاضر يتصف بالقسوة، ويطلق أجراس الإنذار من قادم كارثي أكثر إيلاًماً ورعباً وسوداوية، ويجسد مستقبلاً مظلماً.

مصادر البحث ومراجعته:

- [1] ابن منظور، لسان العرب، بيروت، دار صادر للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت.
- [2] الزبيدي، محمد المرتضى، تاج العروس، تحقيق مصطفى جواد، بيروت، دار الفكر، 1944. (طبعة ثانية: دار إحياء التراث، 1984).
- [3] وهبة، مجدي، معجم المصطلحات العربيّة، (ط1)، بيروت، مكتبة لبنان، 1979.
- [4] المرزوقي، سمير، وشاكر، جميل، مدخل إلى نظرية القصة، تونس، الدار التونسية للنشر، (د.ت).
- [5] شرشار، عبد القادر، تحليل الخطاب وقضايا النص، وهران الجزائر، دار المقدس العربي، 2009.
- [6] البازعي، سعيد، والرويلي، ميجان، دليل الناقد الأدبي، (ط3)، المغرب، المركز الثقافي العربي، 2000.
- [7] لحمداني، حميد، بنية النص السردية من منظور النقد الأدبي، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، 2008.
- [8] زيتوني، لطيف، معجم مصطلحات نقد الرواية، (ط1)، لبنان، مكتبة لبنان ناشرون وموزعون، 2002.
- [9] إبراهيم، عبد الله، موسوعة السرد العربي، (ط1)، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2005.
- [10] زيدان، محمد، البنية السردية في النص الشعري، (ط1)، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، 2004.
- [11] خيرة، فتحى، ومصطفى، مسيري، "العجائبية والبعد الديستوبي في الرواية الجزائرية المعاصرة"، مجلة النص، مج10، ع1، 2023.
- [12] برنيري، ماريا لويزا، المدينة الفاضلة عبر التاريخ، ترجمة عطيات أبو السعود، مراجعة عبد الغفار مكاوي، دولة الكويت، سلسلة عالم المعرفة، عدد (225)، 1999.
- [13] مجمع اللغة العربية، المعجم الكبير، القاهرة، 2011.
- [14] القرآن الكريم، سورة الرعد، آية 29.
- [15] فؤاد، أماني، سرديات الحروب والنزاعات: تحولات الرؤية والتقنية، الدار المصرية اللبنانية، 2024.

- [16] هناوي، نادية، "الرواية من تمثيل الواقع إلى تمثيل نفسها: بروست وجويس وكافكا وولف يعودون إلى اللاواقع منبع السرد وأصله"، جريدة العرب، 2024، الرابط.
- [17] سينتيا، فلوري، نهاية الشجاعة، ترجمة عبد النبي كوّارة، بيروت، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2017.
- [18] العُجَيْلي، سهلا، رواية الديستوبيا العربية: السياق الثقافي والملاحم الفنية، عمّان، منشورات مجاز، 2024.
- [19] الشاروني، يوسف، اللامعقول في الأدب المعاصر، القاهرة، دار الكتاب العربي، 1969.
- [20] جينيت، جيرار، جامع النص، ترجمة عبد الرحمن أيوب، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، 1985.
- [21] عبابنة، يحيى، الرواية الديستوبية: أدب المدينة الفاسدة والواقع المرير، عمّان، أمواج للنشر والتوزيع، 2023.
- [22] بن الشيخ، أحلان، "مشهديات الديستوبيا في رواية جمالكية أرابيا"، مجلة دراسات أدبية، العدد السادس، يونيو 2018.
- [23] وقاص، محمد، "مقال عن الرواية الديستوبية"، مجلة المجلة، 2023، <https://www.majalla.com/node/2954>.
- [24] الزيدي، صدام، "روايات ديستوبية، مُتَخَيَّلٌ سوداوي..."، مجلة نزوى، العدد 118، أبريل 2025.
- [25] برجكاني، فاطمة، "الديستوبيا في الرواية العربية المعاصرة، قراءة في رواية أورويل في الضاحية الجنوبية لفوزي ذبيان"، إضاءات نقدية، السنة 8، العدد 29، آذار 2018.
- [26] فوكو، ميشيل، إرادة المعرفة، ترجمة مطاع الصفدي وجورج أبي صالح، (ط1)، بيروت، 1990.
- [27] توفيق، أحمد خالد، يوتوبيا، دار ميريت للنشر، القاهرة (الطبعة الأولى)، 2008.
- [28] قطّوس، بسام، الفلسفة والشعر أية علاقة؟ سلسلة الفلسفة للشباب (كتاب محكّم)، عمّان، وزارة الثقافة، 2022.
- [29] زيادة، معن، وآخرون، الموسوعة الفلسفية العربية، بيروت، معهد الإنماء العربي، مكتبة مؤمن قريش، 1986.
- [30] الحسامي، عبد الحميد، متخيّل الديستوبيا في الخطاب الروائي، عمان، دار كنوز، 2023.
- [31] أبو طالب، إبراهيم، متخيّل الديستوبيا في مشروع الحسامي النقدي، ج1، 2024، الرابط.
- [32] جاكوبي، راسل، نهاية اليوتوبيا: السياسة والثقافة في زمن اللامبالاة، ترجمة فاروق عبد القادر، دولة الكويت، عالم المعرفة، 2001.
- [33] سارجنت، إيمان تاور، اليوتوبيا، ترجمة ضياء ورار، القاهرة، هنداوي للتعليم والثقافة، 2016.
- [34] عبيد الله، عبد الله، "مقال عن الرواية"، جريدة الدستور، 2012، الرابط.
- [35] حندقها، منى، "الديستوبيا في رواية وبائي بيجان: إثارة المرض للأديب ابن صفى"، مجلة قطاع الدراسات الإنسانية، العدد 32، ديسمبر 2023.
- [36] لالاند، أندريه، موسوعة لالاند الفلسفية، ترجمة خليل أحمد خليل، ج2، (ط2)، بيروت، عويدات، 2001.
- [37] مارتز، جيسي، تطور الرواية الحديثة، ترجمة لطيفة الدليبي، بغداد، دار المدى للطباعة والنشر والتوزيع، 2016.
- [38] بوخالفة، إبراهيم، "الديستوبيا في الرواية العربية المعاصرة: قراءة في البدء كانت الكلمة لأمل بوشارب"، مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب، المجلد 8، العدد 1، 2024، ص 173-190.
- [39] قطّوس، بسام، السقوط في التشيؤ: الشعر في قبضة التشيؤ، عمّان، دار فضاءات، 2021.
- [40] يقطين، سعيد، السرد العربي: مفاهيم وتجليات، الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون، 2012.
- [41] برنس، جيرالد، المصطلح السرد، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، 2003.
- [42] أحمد، إنجي خالد، اليوتوبيا والديستوبيا في رواية أحمد خالد توفيق، القاهرة، العربي للنشر والتوزيع، 2023.